الفعل التواصلي عند هابرماس
نظرية وتطبيق

أ. جلول مقورة

جامعة المسيلة "قسم الفلسفة"

الملخص

إن التواصل عند هابرماس يحمل أكثر من دلالة، فهو تواصل مع الحداثة، وهو تواصل بين الأفراد، وهو تواصل بين المفاهيم، ولذلك أخذ هابرماس على عاتقه مهمة التأسيس للعقلانية التواصلية التي تبدأ كنظرية فلسفية، وتنتهي كنظرية سياسية و يعتبر هابرماس أهم ممثل لمدرسة فرانكفورت في جيلها الثاني حيث يرتكز على الوظيفة النقدية للفلسفة من أجل نقد الوضعية، و نقد التقنية و نقد المادية التاريخية ، لذلك فالفعل التواصلي عند هابرماس هو فعل نقدي ،و فلسفي، و لغوي، و سياسي قوامه الحوار الاخلاقي والعقلاني والبرهاني والهادف ضمن فضاء عمومي حر،ومن هذا المنطلق تعتبر العقلانية التواصلية بديلا حقيقيا، توفر شروط التفاعل والحوار الجاد والهادف، بغية تأهيل الإنسان لحماية عالمه من هدير الاداتية، على نحو يعيد التوازن بين عالمه المعيش وعالم الأنساق.

Résumé:
Habermas est l'un des grands représentants de la deuxième génération de l'École de Francfort,Il est doute sans permis de ramener la pensée d'habermas, à une triple critique idéologique: d'une part celle du positivisme et, d'autre part ce qui pourrait être appelé le technicisme, et d'autre de matérialisme historique .

تقديم:

ظل الانسان السابق على الحداثة يعيد انتاج نظامه الاجتماعي، استنادا إلى نمط أو روح جماعي في الحياة، فقد كان الفرد في هذه المجتمعات ينشأ اجتماعيا، ليصبح ذا هوية شخصية متميزة تقترن بدور اجتماعي مخصوص يكمل من جهته أدوارا اجتماعية أخرى،ينشأ عن ذلك كله نسق اجتماعي عام،

يتمتع بتجانس نسبي يسمح باستمرار الحياة واتصال وجودها، وكانت هذه الخلفية توازي البنيات المتافيزيقية التي تحكم صيغ الفلسفة السياسية التقليدية، فهذا التنظيم الاجتماعي المنظور والترابي هو الذي مكن تلك الفلسفة من الحديث عن لائحة الفضائل والقيم الثابتة التي لايأتي عليها التغير، أنها حددت المبادئ التي تجعل العلاقات بين الافراد علاقات أخلاقية في ذاتها من جهة، ووظيفية فيما يخص ضمانها للاستقرار الاجتماعي من جهة أخرى.

لكن هذا التلاحم بين النظرية والممارسة والذي يرفع شعار امن لكي تعقل سرعان ما تفكك، وشرع في الانهيار عند ظهور الصور الحديثة للمجتمع، وبروز البنيات الفكرية التي تطابق هذه الصور وتوزايها، فالاعلاء من شأن الحرية الفردية واعمال العقل وانتشار التعليم، والحث على قيم المواطنة والمشاركة في الحياة العامة .... الى غير ذلك من القيم الجديدة، كلها أمور أظهرت الحاجة الى مناهج جديدة لتوليد النظام الاجتماعي واعادة انتاجه، وهذه المناهج لايمكن العثور عليها أو اشتقاقها من تصانيف الفلسفة السياسية السابقة على الحداثة، فكان بذلك الانقلاب على المستوى الفكري والفلسفي والاجتماعي عنوانه: العقل بدل الايمان فأضحت بذلك الحضارة الغربية التي ترفع شعار العقل على ثقة تامة بكرامة الانسان ومقدرته على الخلق والإبداع، فلم يعد يهم الانسان في زمن العقل سوى المعرفة والمصلحة، والتي دفعت الانسان الى التحرر من القيود الطبيعية والمشاركة الفعلية في تحقيق التقدم والازدهار والرقي.

إلا أن هذه العقلانية الزاحفة لم تكن في حقيقة الامر سوى عقلانية زائفة بالنظر الى تناقض الوعود التي تعد بها والنتائج التي وصلت إليها، فالعقلانية لم تكن سوى اداتية ذات طبيعة سلطوية استفردت بالحياة الاجتماعية، وتحول بموجبها الافراد الى أشياء خاضعة للضبط والتحكم والتقنين، ولذلك بدأت تبرز مختلف مظاهر الاختناق والتأزم على مشروع الحداثة الغربية، وواكب هذه الازمة حركة نقدية واسعة عملت على تقويم مختلف نتاجات العقل الغربي، وتفكيكه إلى حد الجذرية التامة التي تستهدف كل أسس الثقافة الغربية ومرتكزاتها، بما في ذلك تلك التي توضع في عداد البديهيات والمسلمات، ولعل الوجه الابرز لهذا المشروع الذي اتجه نحو التشكيك في العقلانية الغربية وبمجمل القيم الملازمة لها، هو ما يعرف بتيار ما بعد الحداثة، لتصبح الحداثة هي المحور الذي يلتقي فيه كل الفلاسفة المعاصرين بين متغن بانجازاتها الفلسفية، وبين ناقم على النتائج التي أفضت اليها .

وفي خضم هذا السجال بين الحداثة ومابعد الحداثة، يقترح علينا يورغن هابرماس أنموذجا متميزا للعقلانية يتجاوز فكرة الوعي الزائف، و أطروحة الوعي المفتت، إلى ما يسميه بالوعي التذاوتي و التواصلي. **فإلى أي مدى تستطيع العقلانية التواصلية أن تتجاوز المفهوم الأحادي للعقل بوصفه أداتيا و تحدث ذلك التقارب المطلوب بين النظرية و التطبيق، و بين الفكرة وواقع الممارسة ؟**

وحتما فإن الإجابة عن هذا الإشكال، يفترض أولا تحديدا للفعل التواصلي بإعتباره فعلا يتماهى مع المفهوم الأداتي للعقل، وبوصفه تجربة يجب الوقوف على شروط تحققها، في الوقت الذي تلعب فيه اللغة بكونها تجاوزا للكفاية اللغوية نحو الكفاءة التداولية ، دورها في إنتاج حوار أخلاقي، عقلاني، صادق و هادف ،و أخيرا يجب ربط النظرية بالممارسة، فيتحدث هابرماس عن المجال الحيوي لنجاح النشاط التواصلي، ويقصد بذلك الفضاء العمومي.

العقلانية التواصلية عند هابرماس :

يبدأ مشروع هابرماس التواصلي من خلال تحليل البنية الاجتماعية، ووضع الشروط اللازمة لإقامة حياة اجتماعية على أسس عقلية ، فاذا كان النشاط العقلي عند "ماكس فيبر" هو نشاط موجه لغاية بعينها، ومن ثمة فهنالك ارتباط ضروري بين العقلانية و التقدم العلمي، والتقني،فان هابرماس وفي سياق إعادة صياغة مفهوم العقلانية يحلل النشاط العقلي في كل أبعاده، ليس فقط من المنظور المعرفي الاداتي، بل بإدخال المعايير الأخلاقية والجمالية.

لقد قسم فيبر النشاط العقلي إلي ثلاث مجالات: العلم الوضعي، العلم الأخلاقي، والعلم الجمالي، وفصل بينها، بحيث أن النجاح الغائي التقني والعلمي هو المطلوب، ولو كان على حساب الفعل المرتبط بعقلانية القيم، لكن هابرماس أعاد النظر في هذا التقسيم، من أجل وضع نظرية عقلانية للمجتمع تقوم علي عقلنة العالم المعيش،ودمج المجالات: العلم الأخلاق، الجمال[1] ، وفي ذلك إشارة إلى أن العقلانية الأداتية يجب أن تكون موجهة بعقلانية تواصلية.

وهنا يؤكد هابرماس أن المركزية الغربية، تعني عقلا أداتيا، مشبع بالبعد الغائي، الحسابي، العلمي، وهي مؤسسة علي المنطق الاداتي للإنتاج الرأسمالي، ولا تعير اهتماما للإبعاد الجمالية، والأخلاقية للعقلانية التواصلية،

[1]- عطيات ابوالسعود: حصاد الفلسفة للقرن العشرين ،منشأة المعارف ، مصر ، ص 97.

بذلك فان مشكلة الحداثة لم تكن هي العقلنة كما أدركها فيبر، ولكن نقص أو قصور التطور المتناغم للعقلانية التواصلية[1].

وهذا معناه أن العقلانية الاداتية تجاوزت كل الحدود التواصلية، على المستوى السياسي، الاقتصادي، الأخلاقي، او الفني، في حين أن الفعل التواصلي يتخذ الاداتية كركيزة لأجل نظرية للمجتمع يقول هابرماس:"إن ماهو أنموذج بالنسبة لهذه العقلانية ليست علاقة الذات المنفردة مع العالم الموضوعي القابل للتجسيد،والاستعمال،بل هو أنموذج العلاقة التذاوتية التي يقيمها الناس القادرين على الكلام ،وعلى الفاعلية حينما يتفاهمون بينهم حول شيء معين[2].

ولا يجب أن تفهم العقلانية التواصلية عند هابرماس،على أنها تحامل على نظيرتها الاداتية عند فيبر، فهابرماس يكون قد تأثر بشكل واضح، بمفهوم العقلنة عند ماكس فيبر، لكن مؤمنا بمحدودية الإطار الذي وضعت فيه العقلنة ،و لذلك فان ارتباط العقلانية بالغائية و بالنشاط الاداتي، لا يقلص من قيمة وأهمية المفهوم الفيبري لدى هابرماس سيما وانه(فيبر) جعل مفهوم النشاط العقلاني يحيل إلى مقولات عملية منظمة اجتماعيا[3].

إن هابرماس و في معرض حديثه عن العقلانية ، يتحامل على العقلانية العدائية السارترية ، التي ترمي إلي تفتيت المجتمع الإنساني ليحل محله مجتمع حيواني قائم على البقاء للأقوى، فالعقلانية تعني التفتح الواسع والدعوة إلى التقدم و الرقي التواصلي و من الأفكار الأعظم هي فكرة العقلانية التواصلية التي تتجاوز العقل الاداتي ،فرد العقل للعقل الاداتي يرجع إلى جذور فلسفة الوعي التي وفقا لها تتعلق الذات المنعزلة وترتبط بشيء ما في العالم الموضوعي, مما يجعلها ذات طابع مادي،و لذلك ارتأى هابرماس لتجاوز مذهب الاداتية التخلي عن أنموذج فلسفة الوعي،وإحلال محلها فلسفة اللغة لذلك فان إهتمام هابرماس بالتواصل هو اهتمامه باللغة وبالمعنى، و التخلي عن الادعاءات الميتافيزيقية و المتعالية، ليبرزالجانب التكلمي للخطاب البرهاني، فالعقل يمتلك القدرة على مراجعة أحكامه،و من هنا جاء اشتغال هابرماس

[1]- جورج لارين : الاديولوجية و الهوية الثقافية ، الحداثة و حضور العالم الثالث،ترجمة فريال حسن خليفة ،الطبعة الاولى،مكتبة مدبولي،مصر،2002 ،ص 228.

[2] -Jürgen Habermas ;théorie de l'agir communicationnel t1,tra/jean louis Schlegel ,Ed fayard, paris , 1987:p ;35 .

[3]- محمد نور الدين افاية: الحداثة و التواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة،أنموذج هابرماس،الطبعة الثانية،افريقيا الشرق،الدار البيضاء،المغرب،1998 ، ص 179.

باللغة: "بهضم التأويل والتحليل اللساني ،اقتنعت بأن النظرية النقدية للمجتمع يجب أن تنقطع مع الفلسفة الوعي، التي ترجع مفاهيمها الأساسية إلى تراث كل من كانط وهيجل[1]، ومعنى ذلك أن الحداثة و العقل هما البداية بالنسبة لهابرماس و ليسا النهاية.

إن فلسفة التواصل عند هابرماس،تبدأ بنقد العقل في صورته الاداتية الصرفة، من خلال نقد الوضعية، ونقد الماركسية والرأسمالية المتوحشة، ولكن البديل التواصلي يجد صداه من خلال مؤلفة الضخم "نظرية الفعل التواصلي"، حيث أنه وإن كان في كتابه" العلم والتقنية كإيديولوجيا "، أو كتابه "المعرفة والمصلحة"، يتحدث عن قدرة الاديولوجيا في توجيه المسار العلمي، والمعرفي والفلسفي، والسياسي، والاقتصادي، وغيرها فان كتابه يعبر نسبيا عن نهاية الايديولوجيا، و هنا يذكر "جورج لارين" أنه برأي هابرماس معنى الايديولوجيا يجب أن يكون محددا بالنظم الشمولية في القرن 19، وهذا معناه أن الاديولوجيا تكون قد اختفت في المجتمعات الصناعية المتقدمة، و المعاصرة،وحل محلها التكافؤ الوظيفي، الذي يمنع تشكيل أشكال لشمولية الوعي، ولكنه يجزئ ويفتت الوعي كل يوم[2]، ومفاد ذلك أن هابرماس يرى بأننا انتقلنا من مفهوم الوعي الزائف الذي سيطرت عليه الايدولوجيا،إلى مفهوم الوعي المفتت أو المجزأ، والذي يرمي لنهاية الايدولوجيا. ولذلك فان النظرية النقدية التواصلية تجد صداها في المجتمعات الصناعية المتقدمة، ولا تكون مهمتها نقد الايدولوجيا، وإنما عليها أن تفهم، وتتجاوز هذا الوعي المفتت والمسلوب، و لن يكون ذلك إلا بالفعل التواصلي الذي يبني على التفاهم و الاتفاق،الحوار و الإقناع، يقول هابرماس:" في الفاعلية التواصلية تتوقف نتيجة التفاعل على الإمكانية التي يمتلكها المشاركون للتفاهم، بشكل متبادل حول تقييم صالح تذاوتيا،لعلاقاتهم مع العالم، وحسب هذا الأنموذج من الفعل فان النجاح الوحيد الممكن للتفاعل ،يتمثل في الحصول المشترك على إجماع ما بين المشاركين"[3]، ولذلك فان نظرية الفعل التواصلي ليست نظرية طوباوية لا علاقة لها بالواقع، ولكنها تتجه أساسا نحو الهدف الاجتماعي، ونحو مفهوم

[1] -Jürgen Habermas. Logique des sciences sociales et autres essais , tra par rochilts. presses universitaire de France .paris 1987. P 03..

[2]- جورج لارين: الاديولوجية و الهوية الثقافية ،الحداثة و حضور العالم الثالث ، مرجع سابق،ص222.

[3]- Jürgen ; Habermas ; théorie de l'agir communicationnel ; t1,op,cit,p,122

العالم المعيش. ولذلك فان التواصل هو تجربة تواصلية، لابد أن يستعد لها المشارك في التواصل فاما مقنعا او مقتنعا.

أ/ شروط تحقق التجربة التواصلية:

إن مشروع التواصل عند هابرماس بدأت إرهاصاته، بعدما انجلت بوادر خصوصيته،مقارنة بالمدرسة التي نهل من مبادئها، ونقصد مدرسة فرانكفورت، ولذلك فان التجربة التواصلية، وإن كان وجودها بالقوة في بداية كتاباته، فانه ومع كتابه المختبر"منطق العلوم الاجتماعية" وفي مؤلفه الضخم"نظرية الفعل التواصلي" بزغت فلسفته التواصلية، حتى أصبح مصطلح النظرية التواصلية يقترن بهابرماس، مثلما تقترن المادية التاريخية بماركس.

ومن البداية يظهر هابرماس منهجيته، من خلال محاولة تنظيم،وتقنين النشاط التواصلي، وحتى لا يصبح نشاطا عشوائيا فلابد أن يضبط بمجموعة من الشروط، بدء بالمتواصلين مرورا بشكل التواصل،وإنتهاء عند قطف ثمار هذا التواصل.

إن التواصل ليس حديثا منولوجيا، وإنما هو حوار يدور بين ذوات فاعلة، ومختلفة، ونقاش مؤسس على ضوابط:

1-الفعل التواصلي هو علاقة تفاعل بين ذاتين أوأكثر داخل مجال العالم المعيش، ولذلك فمن حق أي فرد له المقدرة على الفعل، على الحوار و الكلام أن يشارك في التجربة التواصلية، على أن يعلن الاعتراف بمزاعم أو مطالب الصدق المتفق عليه بين الذوات[1]

2-اللغة هي روح عملية التواصل بين الذوات المشاركة في التفاعل، وبينهم وبين العالم الخارجي باعتبار أن اللغة هي أساس التواصل، سواء كان المشارك متكلما أو مستمعا، يقول هابرماس" في النشاط التواصلي كل واحد يحفز عقلانيا من طرف الأخر، للفعل بطريقة مشتركة وذلك يقتضي مفعولات الالتزام الكلامي، الملازم لما نقترحه من أفعال الكلام"[2]

3-مبدأ تكافؤ الفرص بين المشاركين في الحوار، بحيث أن كل واحد منهم له الحق في الدفاع ،أو الاعتراض أو السؤال، مع الاعتراف بإمكانية الوقوع في

[1]- عطيات ابو السعود : حصاد فلسفة للقرن العشرين ، مرجع سابق ، ص104

[2] -Jürgen Habermas ; morale et communication ,tra,par Christian bouchindhome ,ed cerf.paris.1991 ,p79.

الخطأ، وإمكانية تصحيحه فلا شيء غير معرض للنقد، ولا تمارس أي سلطة على الحوار إلا سلطة العقل.

4-وبالتالي يتحرر النقاش من كل ألوان التسلط، والهيمنة التي يمكن أن يتعرض لها من الخارج، أي أن الحوار يجب أن يكون حرا بين ذوات حرة ومتكافئة في المكانة والمستوى لضمان موقف مثالي للحديث.

5-إن الحوار يجب أن يتوافر على قواعد أخلاقية، والتي من أهمها ضمان الإجماع الذي لا يمكن أن نصل إليه، إلا من خلال مفهوم الأطروحة الأفضل، وبهذا يخضع الحوار لمقاييس عقلانية تفرض نفسها على أطراف التواصل :"إن قوة برهان ما، تقاس داخل سياق معين، بصحة الحجج، و هذه الصحة تظهر من بين ما تظهر فيه قدرة تعبير معين على إقناع المشاركين في المناقشة،و على تبرير قبول ادعاء الصلاحية"[1]

6-ترمي التجربة التواصلية للوصول إلى اتفاق بين المشاركين في النقاش، ويفترض وجود تعارف متبادل بين أطراف الحوار، ووجود نوع من التقارب في وجهات النظر، ومعنى ذلك أن الاتفاق طريقه التفاهم، والتفاهم يفترض التفاهم المتبادل والتقارب في وجهات النظر،" إن التفاهم هو العملية التي من خلالها يتحقق اتفاق معين، على الأساس المفترض لادعاءات الصلاحية المعترف لها باتفاق مشترك[2]

7-إن أخلاقيات النقاش تفترض أن المشارك في التواصل، يختار تعبيرا معقولا ودقيقا لكي يتمكن المتحاورون من تفهم بعضهم، والمتكلم يجب أن يكون له نية توصيل المعنى، وتصبح العلاقة بين الصادق والمصدق.

وبالتالي يتعين على المتكلم اختيار تلفظ دقيق بالقياس إلى المعايير الجاري بها العمل،لكي يتمكن المستمع من فهم وقبول هذا الطرح، فيكون بذلك تداوليا وأخلاقيا. فالبرهان القوي برأي هابرماس هو الذي يفرض نفسه في عملية الحوار،ويستمد من معايير تواصلية ، فيعتمد على الدلالات وعلى الجانب الأخلاقي، باعتبار أن التواصل يفترض هذين الأمرين.

8-إن التواصل يبنى علي الصدق، فإذا تعرض للشك أو لم يستطع المشاركون في التواصل تبريره بالحجج العقلية،فان مزاعم الصدق نفسها تصبح موضع سؤال، وربما يختل التواصل أو يتوقف وفي هذه الحالة، يرى

[1] -Jürgen Habermas ;théorie de l'agir communicationnel ;t1 :op :cit ;p 34

[2] -Jürgen Habermas : logique des sciences sociales : op,cit ;p :329.

هابرماس انه إما أن يحصل انتقال من الوضعية التواصلية التي افتقدت شرطا من شروطها العقلانية، إلى النشاط الاستراتيجي، و إما توقيف التواصل، وإما استئناف النشاط التفاهمي على صعيد الخطاب البرهاني لمعالجة ادعاء الصلاحية المعرض للاختلال، ذلك بواسطة المناقشة[1]

وبهذا يمكن أن نتحدث عن تحديد دقيق لشروط التواصل، المرتبطة أساسا باللغة، وبأخلاقيات النقاش لخصها عبد الغفار مكاوي:"كقابلية التعبير اللغوي، وحقيقة مضمونه، وصدق محتواه،و مصداقية مقاصد المعبر عنه أو إخلاصها، والمشروعية المعيارية للقول أو التعبير،أي المطالبة بأن يكون صحيحا أو ملائما بالنظر إلى علاقته بمضمون قيمي أو معياري يقربه المتكلم و السامع معا، وما نستشفه من كل هذه الشروط هو أن الفعل التواصلي لن يستقيم إلا بأهم عنصر فيه، وهو اللغة، والتي مع هابر ماس لم تعد أصواتا أو جملا،أو عبارات، وإنما أصبحت اللغة تشير إلى الفعل وتعني التداولية (pragmatique) ولذلك فان الفعل التواصلي يبنى على الفعل اللغوي، ونجاح التواصل مرهون باللغة في انتقالها من المستوى الصوري إلى المستوى التداولي، فأين تلتقي اللسانيات التداولية مع العقلانية التواصلية؟

ب /اللغة و التواصل: اللسانيات التداولية في خدمة العقلانية التواصلية:

إن الحديث عن التذاوت والتواصل ينبع أساسا من جسر اللغة، التي تبزغ من الإرث الاجتماعي، والحضاري الذي يحيط بالفرد المتكلم، وهي لا تأتي مستوردة من الخارج ولا من علياء السماء، بمعنى أن مفراداتها موجودة ، قبل أن توجد ،وهي خزان المعارف والتجارب لمن سبقونا. فعندما نتبادل الكلام نلتجئ إلي معجم نفهمه، ويفهمه المتحدث الذي أمامنا وإلا انعدم الاتصال بالصوت، والتواصل الاجتماعي بيننا وبهذا تصبح " العقلانية هي الاستعداد الذي يرهن عليه الناس القادرين على الكلام و الفعل على اكتساب وتطبيق معرفة قابلة للخطأ[2]

من أجل ذلك يرتكز هابرماس على مسلمة اللغة التحليلية، التي تؤكد على أنه لا يجوز حصر اللغة في سحر البيان، وربطها فقط بالتعبيروالوصف، فما نتلفظ به من ملفوظات يتجاوز بكثير ما رسمته النظرية الاسمية في المعنى للغة، ليصبح القول قولا ينجز فعلا.

[1] -ibid ;p 332

[2] -Jürgen Habermas ; le discours philosophique de la modernité, tr christian bouchindhome,et rainerrochilts ,paris ,ed galimard,1988 ;p ;371

يشير هابرماس في مقاله الشهير: ماذا نعني بالتداولية الكونية؟إلى أن الحديث عن اللغة لن يكون على مستوى الشكل بقدر ما هو على مستوى الفعل، ولذالك وجب تجاوز المفاهيم الصوتية، التركيبية، والدلالية للغة لنتحدث عن مفهوم رابع أساسي وهو التداولية (pragmatique)، وبهذا ننتقل من دراسة الكفاية اللغوية إلى دراسة الكفاية التواصلية[1] ومعنى ذلك أن النشاط اللغوي لا يهتم باللغة كموضوع وحسب ،وإنما يجعلها وسيلة لخلق الفعل التواصلي، فلا يكفي أن تكون العبارات صحيحة ما لم تترجم فعلا في الحياة اليومية" فالفعل يفرض نوعا من التداخل بين الذوات الفاعلة ،وهذا يتم من خلال المشاركة في التواصل معبر عنه بواسطة اللغة"[2]

ولعله يجب الإشارة هنا إلى ذلك الاختلاف على مستوى النشاط اللغوي، بين هابرماس و تشكومسكي ،فهذا الأخير يعتبر اللغة كيانا مستقلا دون الاهتمام بالنواحي المعرفية والتواصلية، ويؤكد مرارا على التمايز بين الكفاءة و الأداء،و يعتقد أن هنالك بين ما يمكن أن يقوله و يفهمه الإنسان نظريا، وما يقوله فعليا، ولذلك فهو يركز على الجانب الشكلي للغة دونما الحديث عن الاستخدام اللغوي، وهذا يعني أن هابرماس لا يتوقف عند حدود الكفاية اللغوية، وإنما هدفه الأساسي هو الأداء التواصلي ،وهكذا فان اللغة عند هابرماس لا تعبر عن قيمة مجردة في ذاتها، وإنما تهدف إلى خلق التواصل عن طريق التفاهم، ضمن إطار ما اسماه بالتداولية الصورية، والتي تعني "إعادة بناء شروط الإمكان الكلية للتفاهم". هذا وإذا كانت مقتضيات البحث عند "تشومسكي" اهتمت أساسا بطرق توليد الكلام، وأكدت بأنه يتضمن العديد من الأخطاء نظرا لتأثره بالحالة النفسية ،والمزاجية للمتكلم، ولذلك كان اهتمامه منصبا حول مفهوم المتكلم المثالي، من خلال تحديد المعرفة اللغوية لديه: فان هابرماس أضحى له مفهوما جديدا للمتكلم المثالي التواصلي يعبر عن أنموذج الذات المتكلمة القادرة على انجاز لغوي سليم

وما نفهمه من ذلك أن نظرية الفاعلية التواصلية، تمرحتما بنوع من النظرية الاجتماعية للحقيقة ، و التي تبنى على التفاعل اللغوي، فلا يجب أن تكون اللغة حبيسة العبارات، والجمل والألفاظ، وإنما يجب أن تحقق النجاح

[1]- حسن مصدق: هابرماس و مدرسة فرانكفورت النظرية النقدية التواصلية ،تقديم برهان غليون،الطبعة1،المركز الثقافي العربي،بيروت لبنان،2005 ،ص 127.

[2] -Jürgen Habermas ; Christian bouchindhome : logique des sciences sociales ;op ;cit :p416

على مستوى خلق التواصل في إطار لغة صحيحة وسليمة، فهابرماس لا يهتم باللغة في سياق التداوليات من زاوية اعتبارها نسقا من الرموز له تركيبه النحوي وحسب، و إنما يركز على اللغة من المنظور التداولي، و في هذا الصدد يقول:"إن البنيات الكلية للخطاب يجب أن تدرس أولا و قبل كل شيء من جانب مسألة التفاهم"[1] و هكذا تكون الكفاية اللغوية بمفهوم أكثر شمولا، وأكثر واقعية عندما تكون كفاية لغوية تواصلية.

إن فهم النشاط التواصلي لدى هابرماس ،حتما يمر باعتبار هابرماس فيلسوف لغة، على اعتبارأن العقلانية التواصلية ،ترجع إلى التجربة المركزية للخطاب البرهاني القادر على خلق اتفاق، وإجماع بدون عوائق، وتجدر الإشارة هنا أن التفاهم على أساس اللغة المشتركة عند هابرماس يستثني بعض أنماط الخطاب، كالخطاب العلمي الذي لا يتضمن أي غموض، ولذلك فالحوار يكون مجرد تحصيل حاصل يقول هابرماس:" العلوم التجريبية الصارمة تتحرك ضمن هذا الأفق الذي لا يتعرض إلى المساءلة"[2] وهذا الأفق يقصد به أفق تجاوز التأويل، والخروج دائما إلى فهم مشترك، وهو ما يعرف عنده باللغة الخالصة وهنا يشير "مطاع الصفدي" إلى أن هابرماس يركز على اللغة العادية فهي اقرب إلى التواصل الانفعالي.

ويظهر من خلال ذلك أن اللغة اليومية العادية القريبة من النسق الاصطلاحي الرمزي، بما تتضمنه من إشارات وحركات جسدية تحتاج على تأويل، لكي يكون هناك تفاهم، واتفاق بين أفراد المجتمع.

ويرى هابرماس أن اللغة العادية تسمح بخلق علاقة حوارية بين الناس، وبالتعبير عن الفردي والخاص اعتمادا على مقولات عامة، و من ثمة فان التفهم التأويلي، يجب أن يستعمل هذه البنية التي تقوم على تطويع التجربة التواصلية اليومية والتفاهم بين الذات و بين الأخر.

وما يقصد بذلك أن اللغة العادية هي التي توجد الحوار، من خلال أن تكون قابلة للتأويل أولا.

[1] -Jürgen Habermas :logique des sciences sociales ;op ;cit ;p358

[2]- يورغن هابرماس: المعرفة و المصلحة ،ترجمة حسن صقر،ط1،منشورات الجمل،كولونيا،ألمانيا.2001ص169.

وانطلاقا من ذلك اتجه هابرماس نحو "جعل ما هو غير قابل للوصف من المستوى الفردي، قابلا لتوصيله"[1]، وهكذا انتهى إلى أن اللغة العادية تنطوي بين نوعين من الفعل" اللغوي (التحدث)، وغير اللغوي(الفعل) .وإذا أردنا الفصل في سهولة التواصل من صعوبته نجده غير يسير في الفعل غير اللغوي. وفي هذا الصدد يضرب هابرماس مثالا قائلا: عندما أشاهد أو ألاحظ زميلا يمر بسرعة من الجهة الأخرى من الطريق، تتكون لدي إمكانية التعرف على مروره السريع كونه فعل لأغراض معينة، فالعبارة يمر بسرعة تكفي لوصول الفعل، فبالفعل نعطي للفاعل النية للوصول بسرعة إلى مكان معين في الطريق، أي أن ملاحظة الفعل ترتبط بقصدية ونية الفاعل.

وهذا يعني لدى هابرماس أن هذا الفعل يحتاج إلى قراءة، وفهم، وتأويل، لان النوايا تتعدد، ذلك أن النشاط غير اللغوي لا يعطينا المعنى تلقائيا علي عكس النشاط اللغوي.

وهنا يورد هابرماس مثالا مضادا:" عندما افهم الأمر الذي أعطاني إياه صديقي أو شخص آخر،كان يطلب مني مثلا رمي سلاحي، فاعرف بدقة ما هو الفعل الذي أنجزه، فهو أعطى أمرا دقيقا وهذا الفعل لا يتطلب تحليلا مثلما تطلب ذلك المثال الأول.[2] وهذا معناه أن الفعل اللغوي يظهر نية وقصد المتكلم، لأن له بنية وتركيبة تعطى المعنى مباشرة، وهذه البنية تظم الفعل والكلمة، وهو ما يسميه أفعال كلامية. وبصفة إجمالية فكل الأفعال مهما كانت لغوية لا يمكن فهمها الا كنشاطات موجهة نحو غايات. وبالتالي لكي يكون هناك تواصل لا بد أن يتجه هذا النشاط نحو المفاهيم بين المتكلم والمستمع، وهذا التفاهم لا يمكن الوصول إليه إلا بالتعاون، ويتوقف على القبول العقلاني المبرر من طرف المستمع، وهكذا يدعو هابرماس إلى ضرورة التحدث بنفس اللغة من حيث معاييرها، وبالتالي المشاركة في العالم المعيش علائقيا تشترك فيه جماعة من نفس اللغة[3].

وما نصل إليه من كل ما قلناه ، أن التواصل يرتبط باللغة، واللغة التي يقصدها هابرماس هي اللغة العادية وليست الخالصة، والهادفة إلى تحول المجتمع من عالم الأنساق إلى العالم المعيش، من خلال خلق التفاهم الفعلي.

[1] -Jürgen Habermas :la pensée post métaphysique essais philosophique tra :de Lallemand ;par ;rainer rochilts ;ed ;colin ;paris :p 66

[2] -ibid. :p66

[3] -ibid. :p67

وهكذا فان هابرماس وفي معرض تشييده للعقلانية التواصلية القائمة على اللغة يركز على مفهومين أساسيين هما : التداوليات الصورية وأخلاقيات المناقشة.

1-التداوليات الصورية:

إن الحديث عن الهدف التواصلي للغة عند هابرماس، لن ينجح بأي حال من الأحوال، إلا أن تكون هناك ضوابط صورية،ونحوية للغة التي نستعملها في التواصل، فالنجاح المرجو من التواصل هو التفاهم والاتفاق ،إنما يتأتي من لغة صحيحة و سليمة." ومن ثمة فكل شخص يمتلك القدرة على الكلام و الفعل يمكنه أن يشارك في التواصل، وأن يعلن عن ادعاءاته للصلاحية، و لكن شريطة أن يراعي مقاييس المعقولية، والحقيقية و الدقة و الصدق.

إن الفعل الكلامي لدى هابرماس يمكن فهمه من خلال انه تعبير يريد غرضا ليصل إلى تأثير. وهذا لن يتأتي إلا من خلال التداولية المرتبطة بمعايير:

-الصدق: عبارة المتكلم صادقة، وغير مزيفة.

-المصداقية: يجب على المتكلم ألا يكون مقلا في حديثه فلا يفهم. ولا ثرثارا فيحشو ويطنب، بل محكم التعبير عن نواياه ومقاصده (الدقة)

-الصلاحية المعيارية: يجب أن يكون استخدام العبارات والكلمات متطابقا، ولا يخرج عن السياق المتعارف عليه في لغة المجتمع الذي ينتمي إليه.

-المعقولية: ترتبط بشكل البرهان، والخطاب الذي يجب أن يخضع لضوابط عقلانية حتى يؤدي إلى الاتفاق.[1]

وفي هذا الصدد يقول هابرماس:" يتعين علي كل متكلم أن يختار تعبيرا معقولا لكي يتمكن المتكلم والمستمع من تفهم الواحد الأخر، والمتكلم يجب ان تكون له نية توصيل مضمون حقيقي، لكي يتمكن المستمع من مشاطرة معرفته، وعلى هذا المتكلم أيضا، أن يعبرعن مقاصده بصدق لكي يتمكن المستمع من تصديق تلفظ المتكلم والثقة به، وأخيرا يتعين على المتكلم اختيار تلفظ دقيق بالقياس إلى المعايير الجاري بها العمل، لكي يتمكن المستمع من قبول هذا التلفظ بطريقة تجعل المتكلم والمستمع في وضعية القدرة على الاتفاق ذي الخلفية المعيارية".[2]

فالهدف إذن هو التفاهم عن طريق الاتفاق انطلاقا من لغة صحيحة ومعبرة و هادفة، وهذا يؤدي إلى نوع من التبادل والتقارب والمشاركة والتذاوت،

[1]- حسن مصدق:يورغن هابرماس و مدرسة فرانكفورت ، مرجع سابق،ص 131

[2] -Jürgen Habermas : logique des sciences sociales :op ;cit ;p331

والذي لن يتحقق إلا من خلال ادعاءات الصلاحية في الصدق والمعقولية والدقة...فالتفاهم برأي هابرماس هو العملية التي من خلالها يتحقق اتفاق معين على أساس المفترض لادعاءات الصلاحية المعترف بها باتفاق مشترك، وهنا نلاحظ أن هابرماس يجمع بين التداولية والصورية ليصل إلى مفهوم التداولية الكلية ،و التي من خلالها يتم التفاعل والتواصل ضمن إطار لغوى ومعياري مناسبين. يقول هابر ماس:" الجملة المصاغة جيدا من الناحية النحوية تستجيب لشروط المعقولية، وعلى من يشارك في التواصل أن يكون مستعدا للتفاهم بالتعبير في كل مرة عن ادعاءات الحقيقية والصدق والدقة، ومفترضا، بشكل متبادل أن هذه الادعاءات محترمة، ومن ثمة فإن الجمل تكون موضوع تحليل لساني، بينما أفعال الكلام تكون موضوع تحليل تداولي"[1]. من كل ما ذكرنا يمكن قول أن الذات المتكلمة تمارس الفعل اللغوي من خلال علاقتها بالعالم الخارجي عالم الوقائع،فكلما كان التطابق بين الفكر والواقع حصل الإدراك والفهم، ولذلك وجب أن تبدأ وتنتهي إلى "الصدق" وما نشعر به وهي مسالة نفسية وذهنية، وبالتالي فهو يتعلق "بالمصداقية"، هذه المصداقية ما دامت أنها موجهة للحياة الاجتماعية فهي ملتزمة بمراعاة القيم والمعتقدات والأحكام المختلفة، فهي ناجحة متى ارتبطت بالصلاحية المعيارية .

إن التواصل يكون باللغة التي يكون لها معنى عندما تكون تداولية، وهذا يفضى إلى الحوار والمناقشة، ونجاح الحوار وتداوليات الصورية، إنما يرتكز على أخلاقيات المناقشة.

2- أخلاقيات المناقشة:

يؤكد هابرماس أن التواصل غدا الصوت الوحيد القادر على توحيد عالم فقد كل مرجعياته، لنتواصل ولنتواصل بالأدوات و التقنيات التي تضعف التواصل نفسه، هذا هو حب التناقض الذي وضعنا فيه[2]، وهذا معناه أن التواصل يختلف عن الاتصال، لأنه أي التواصل نجاحه محكم بشروط صورية وأخرى أخلاقية، أي التواصل من التداوليات إلى الأخلاقيات.

إن إحدى نقاط القوة في تداولية هابرماس، تتجلى في البرهنة على أن الأخلاق مكون أساسي للعقلنة، والتواصل معا،ولكن السؤال المطروح عن أي

[1] -ibid p ;368

[2]- حسن مصدق : يورغن هابرماس و مدرسة فرانكفورت ،النظرية النقدية التواصلية، ص 14

أخلاق يتحدث؟ عن أخلاق فطرية قبلية، ثابتة، ومطلقة؟ أم عن أخلاق بعدية، تجريبية، متغيرة، ونسبية؟.

إنه و لفهم التصور الصحيح عن مفهوم الأخلاق عند هابرماس، وجب وبشكل ضروري التعريج على فيلسوف الأخلاق في الساحة الألمانية،وفي الفلسفة الحديثة وهو "ايمانويل كانط".إن كانط وهو يتحدث في كتابه "تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق" أو "نقد العقل العملي"، يحركه شعور بضرورة تأسيس الأخلاق الكلية، فإذا كانت التجربة،كما يرى لا تقدم لنا معرفة كلية فان المبادئ التجريبية مثل: الميول، الرغبات، والسعادة، لاتصلح مطلقا لان نؤسس قوانين الأخلاقية ، ذلك أن طابع ،ومبدأ الكلية الذي يجعلها صالحة لجميع الكائنات العاقلة بغير تمييز، والضرورة العملية غير المشروطة المفروضة عليها عن هذا الطريق ينتفيان[1] وهذا يعني أن كانط يرفض أن تستمد الأخلاق من الطبيعة البشرية أو من عادات الناس، بل أساسها العقل، فهي ذات طبيعة كلية، قبلية، ومطلقة.

إن أساس الأخلاق الكانطية هو الواجب، والواجب لأجل الواجب،فهو عقلي ومفرغ من أي محتوى منفعي،هذا الواجب الكلي الذي لا نعرفه إلا من خلال الإرادة الخيرة أو النية الطيبة.فالخير خير في ذاته، وهو محدد سلفا، وبشكل صوري لأنه لا يرتبط بالناتج وإنما بالمبدأ[2]، وهذا معناه أننا أمام أخلاق كلية، ولكن بصورة مجردة تتمثل في إعلان نوايا واجبات صورية من الطرف مونولوج أحادي، لذات عارفة تناجي العالم المتعالي، وهكذا تصطدم الأخلاق الكانطية بالواقع، وتتناقض مع مبدأ الكلية لان الوعي الفردي، وليس الوعي الاجتماعي،هو الذي يحتل الصدارة في تأسيس الأخلاق بالمعني الكانطي، وتنتهي كما يؤكد هابرماس إلى تفاعل بين ذوات منعزلة، كل ذات تنطلق من معلمها على أساس أنها الوعي الموجود الوحيد، وبالتالي يضيع اليقين الأخلاقي.[3]

إن هدف هابرماس هو نقل الأخلاق من المجرد إلى الواقع المعيش، ومن المنظور الفردي إلى المنظور الاجتماعي، بالتالي فهو يرفض الأخلاق ،

---

[1]- ايمانوال كانط:تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق:ترجمة عبد الغفار مكاوي،الدار القومية للطباعة و النشر، القاهرة،ص 64

[2]- المرجع نفسه،ص17

[3]- محمود سيد احمد: مبدأ الكلية بين كانط و هابرماس ، مجلة عالم الفكر،العدد 04 ، المجلد34، 2006 ص339.

بالمعنى الكانطي، ويؤكد بان التفاعل في ظل القوانين الكانطية ينحل إلى أفعال منعزلة،كل ذات يجب أن تفعل كما لو كانت الوعي الموجود الوحيد، و يمكن أن يكون لكل ذات في الوقت نفسه ، اليقين بان كل أفعالها وفق قوانين أخلاقية تنسجم منذ البداية وبالضرورة مع أفعال أخلاقية لكل الذوات الممكنة[1]، وهذا معناه أن كانط برأي هابرماس يفرض انسجاما منذ الأزل بين أشخاص مختلفين، و هي مسلمة يمكن دحضها بسهولة ،بالنظر إلى الاختلاف الثقافي والمعياري الذي يطبع المجتمع.

ولذلك يلح هابرماس على ضرورة تكوين أخلاق تواصلية، تنمو وتتطور، بفضل الحوار المفتوح عن طريق خطاب عقلاني، وحر يحل محل الخطاب الرسمي السائد[2]، ومعنى ذلك أن هابرماس يتجاوز كل معنى ثابت للأخلاق، ويرفض كل تصور ميتافيزيقي ومجرد لها، وينحو تجاه تأسيس فيزيقا الأخلاق، إن جاز اللفظ، تراعي الضرورة الفردية إلى جانب العقل،بمقولات ورغبات الإنسان.

وإذا كان هابرماس لم يحد عن كانط في مسالة الأخلاق الكلية، فان مفهوم الكلية اختلف كثيرا عنده، فهي كلية واقعية، وليست مجردة، تحاول أن تسد الثغرة بين ما هوعقلي، و ما هو تجريبي، وبين الواجب من جهة، والميول والرغبات والمصالح من جهة أخرى.

ومن هذا المنطلق ، فان هابرماس لا يطلب من الفاعل العاقل أن يسال نفسه، هل يمكن أن يرتفع فعله الأخلاقي إلى مستوى القاعدة العامة، وهل ينطبق فعله على الجميع من دون تناقض، ليحقق أخلاق الفعل، بل يطلب منه أن يسال نفسه هل المعايير الأخلاقية الصحيحة تلقى إجماعاوهذا يعني أن كلية الأخلاق نصل إليها من التفاهم لتحقيق الإجماع، وليس معطى أوليا، ومجردا، ويرى هابرماس أن عدم الاتفاق والوصول إلى إجماع حول المعايير والقيم والحاجات المختلفة، لا يعني بأي حال من الأحوال غياب صور لمصلحة عامة منتظمة فقط. إن المسالة أننا لسنا واضحين فما يتعلق بمصالحنا الحقيقية، وهنا الحل يكمن برأيه في "الخطاب العملي" وهو اختيار للمصالح التي يجتمعون عليها، أو العكس" فيرتكز الإجماع على معرفة مخلصة أمينة من طرف

[1]- المرجع نفسه:ص 340.

[2]- علاء طاهر : نظرية هابرماس النقدية، مجلة الفكر العربي المعاصر ، مركز الانماء القومي ، العدد 41، بيروت لبنان ،ص 58.

المشاركين في الخطاب بمصالحهم الحقيقية، وعلي إعادة تأويل لها،وعلى تقديم البرهان والحجة الأفضل ومن ثمة يكون الإجماع مبررا عقليا.[1]، فالحاجة إذن للغة صادقة تؤدي إلي ظهور المصلحة، وإلى ظهور العلوم التأويلية، وينصب اهتمام المصلحة العملية على التفاعل البشري، أي على أساس تأويل أفعالنا تجاه بعضنا البعض، والسبل التي نتفاعل بها، في إطار التنظيمات الاجتماعية وكأني، بهابرماس يصل إلى أخلاق تواضعية، واصطلاحية،لأنها ترتكز على الحوار وعلى اللغة، وتنتهي إلى الإجماع، التفاهم، والاتفاق.

وانطلاقا من كل ما ذكرنا، يمكن أن نقول مع هابرماس أن أخلاقيات المناقشة، إنما ترتكز على افتراضيين مهمين:

-الأول يتمثل في ضرورة الدخول في مناقشة حقيقية، لتأسيس المعايي،والأوامر اعتمادا على العقل، وهذا يستحيل القيام به،في نهاية التحليل بطريقة منولوغية، أي بواسطة برهنة فرضية مفصلة فكريا

- الثاني فيتمثل في كون الادعاءات المعيارية، تتضمن معنى معرفيا، يجوز التعامل معها بوصفها ادعاءات للحقيقة "[2] والمقصود بذلك إن الحوار المستند إلى القواعد الأخلاقية يجب أن يتضمن محتوى معرفي معياري قابل للمناقشة والقبول أو الرفض، ولكن انطلاقا من الحاجة والبرهان العقلي، فالادعاء ذو الطبيعة المعرفية يكون مقبولا في المناقشة العقلية، ويكون مؤسسا على البرهان العقلي، ويهدف إلى الإجماع.[3]

إن المشاركين في الحوار ليسوا عند هابرماس شخصيات كانطية عاقلة ، بل هي موجودات حقيقية وثقافية تستمد قيمتها من المجتمع، ولذلك فان الحوار الأخلاقي يكون محاطا بالمنظور الذي يضفي عليه من الخارج، وفي هذا الصدد يقول هابرماس:" يتعين على المناقشات العلمية أن تستمد مضامينها من

[1]- محمود سيد احمد: مبدأ الكلية بين كانط و هابرماس، مرجع سابق،ص 341.

[2]- أيان كريب: النظرية الاجتماعية من بارسونز الى هابرماس، ترجمة حسن غلوم ، مجلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الاداب و الفنون، الكويت، العدد 1999،244،ص 348.

[3] -Jürgen Habermas : raison et légitimité ,problème de légitimation dans le capitalisme avance traduit de l'allemand par ; jean pacoste, ed ;payot ;paris France ;1978,p 146

الخارج"[1] وفي ذلك إشارة إلى الجانب المعياري لادعاءات الصلاحية، وأن المناقشة لكي تنجح وجب أن يكون حقلها هو العالم المعيش،و مراعاة لكل التغيرات والتحويلات التي تتبلور ضمن إطار ثقافي معياري، وتاريخي معين.

إن هذا يعني أن المناقشة المرتكزة على اللغة، يجب أن تتأسس على أخلاقيات تهدف للوصول إلى الكلية عن طريق الإجماع الذي يبنى على البرهان العقلي، والإقناع من اجل تحقيق المصلحة العملية الجماعية عن الطريق وعي حقيقي و ملتزم بهذه المصلحة.

جـ /العقلانية التواصلية في خدمة العالم المعيش:

تجدر الإشارة بداية، بان مفهوم العالم المعيش بمكوناته المختلفة ، يمثل السياق الذي يشكل عملية التفاهم بين الذوات، كما أن نظرية الفعل التواصلي يجب أن ترتبط بهدف وغاية، وهي عقلنة العالم المعيش وبما أن العالم المعيش هوعالم متغير فان الفعل التواصلي هو أيضا فعل متغير،بالنظرإلى بنية المجتمع ككل[2] و بالتالي فان الفاعلية التواصلية تعيش بالعالم المعيش وفي خدمته، يقول هابرماس:" الممارسة التواصلية الجارية تدخل في سياق عالم معيش يحدد من خلال التقاليد الثقافية والتنظيمات المشروعة والأفراد المندمجين اجتماعيا، فالأعمال التأويلية تعيش على رأسمال اجتماعي داخل العالم المعيش"[3] ..

ولقد إشارت عطيات أبو السعود في كتابها .(حصاد الفلسفة في القرن العشرين)، إلى أن فكرة العالم المعيش ليست فكرة من اختراع هابرماس، فقد سبقه إلى ذلك كل من هوسرل وفتجنشتين، إلا أنهما برأي هابرماس لم يكن لهما هدف منهجي، والذي يظهر من خلال ذلك باحثا من الثبات داخل تغير بناءات العالم المعيش، و أشكال الحياة.

وإذا أردنا ربط فكرة عقلانية العالم المعيش عند هابرماس بمؤلف معين، فان الجزء الثاني من كتابه الضخم "نظرية الفعل التواصلي" هي التي احتوته، من خلال اعتبار فكرة العالم المعيش مكملة لمفهوم العقل التواصلي، لأنها مرتبطة أيضا بمفهوم المجتمع ،و تشكل سياق الفعل الاجتماعي، فنحن أمام نظرية في الفعل التواصلي الاجتماعي المعيشي.

---

[1]- Jürgen Habermas ;morale et communication ,tra : Christian bouchindhomme,ed cerf paris 1991 p ;126

[2] - Jürgen Habermas morale et communication op ;cit :p :126

[3] -Jürgen Habermas ;théorie de l'agir communicationnel ;t2 ;tra,jean louis schlegel,ed, fayard,paris,1987:p 192

بالحديث عن العالم المعيش، نحن ننتقل من العقل التواصلي المنظم بفضل التداوليات الصورية التي تؤسس الخطاب البرهاني، والهدف، إلى البحث عن الشروط الممكنة للتفاهم، إلى النشاط التواصلي الذي يتجه نحو التفاهم من اجل وضع شروط لمجتمع بالمعنى التواصلي، فالتفكير التواصلي على أساس عقلي برهاني هو في لبه تفكير فيما هو مجتمعي، فآليات التفاهم تتجه نحو دراسة الممارسة اليومية في نطاق العالم المعيش،"أن الأفعال التواصلية تمثل نسيجا تتغذى منه مكونات العالم المعيش، وتشكل من خلال ذلك وساطة،انطلاقا منها يعاد إنتاج أشكال الحياة الملموسة"،[1] ولقد أكد هابرماس ارتباط الفعل التواصلي بالعالم المعيش قائلا:" أن أشكال الحياة العينية هي التي تعوض الوعي المتعالي الموحد، وعبر البديهيات التي تفرضها الثقافة، وعبر أشكال تضامن الجماعة ، وعبر كفاءات الأفراد المندمجين اجتماعيا، فان العقل الذي يعبر عن نفسه في الفعل التواصلي يقوم بالوساطة مع التقاليد والممارسات الاجتماعية، ومركبات التجارب المرتبطة بالجسد،و التي تذوب في مجموعها في كلية خاصة".[2]

وبذلك يؤكد هابرماس أن الوصول إلى عقلانية تنويرية و تحديثية في أعلى صورها مرتبط أساسا بترقية العوالم المعيشة الثلاث: 1-الثقافة 2- المجتمع 3- الشخصية، لان الهدف هو :

أ-الإعلاء من التأمل و التفكير العقلاني في الحياة الثقافية.

ب-تحقيق معيارية كونية تطبق على المجتمع بعد أن تصدر عنهم وبواقعهم.

ج-العمل على تنشئة اجتماعية مولدة للمهارات الفردية، وتساعد على النضج الشخصي ومعنى ذلك انه يجب تجاوز الوعي الزائف ثم المتفتت والمجزأ، للحديث عن وعي جماعي، تواصلي، برهاني، بمعيارية كونية.

فالثقافة والمجتمع والشخصية، هي العناصر الأساسية لإعادة صياغة نظرية اجتماعية حقلها هو العالم المعيش، ومن اجل ذلك وجب تفعيل التحليل النقدي للمعرفة، ثم تأسيس معايير وقيم مجتمعية جديدة، فتنشئة إنسانية قادرة على تحمل مسؤولياتها، وتأسيس هويتها،كل ذلك يندرج ضمن مشروع هابرماس،و المتمثل في عقلنه العالم المعيش، بالاستخدام الجيد للمعرفة، وباستقرار المجتمع، وتحقيق الاندماج والتواصل بين عناصره، وبتكوين أفراد

[1] -Jürgen Habermas: ; le discours philosophique de la modernité,op,cit,p371

[2] -ibid. ,p ;386

فاعلين ومسؤولين وقادرين على الإقناع، ومستعدين لإقتناع. ولذلك نرى أن هابرماس يتجاوز كل فلسفة متعالية وكل نظرية خالصة للعقل، ليتحدث عن فكرة تجسيد العقل في المجتمع وفي العالم المعيش فإن العقل يتجسد في انسجة النشاط التواصلي، وفي بنيات العالم المعيش في ذات الوقت"[1]

وخلاصة القول: إن هابرماس وفي معرض صياغته لنظرية للمجتمع يميز بين العالم المعيش ببناءاته: الثقافة، المجتمع، الشخصية، وبين انظمة الممارسة بطريقة صورية قياسا إلى وسائل الضبط، أي انه حينما نمتلك قدرة على التواصل، لا يكون ذلك على أساس صوري وحسب، و إنما مراعاة لمقتضيات العالم المعيش الذي يتحرك فيه المتواصلون، وبذلك فلا مجال للحديث عن الحقيقة بالمنظور النخبوي، لأنه منظور أسطوري ذهب ولن يعود، و إنما الحقيقة هي الإجماع و في خلق إمكانية التفاهم و الاتفاق.[2]

خاتمة :

ومن هذا المنطلق تعتبر العقلانية التواصلية بديلا حقيقيا، توفر شروط التفاعل والحوار الجاد والهادف، بغية تأهيل الإنسان لحماية عالمه من هدير الاداتية، على نحو يعيد التوازن بين عالمه المعيش وعالم الانساق.

وتأسيسا على ما سبق يمكن القول، أن المشروع الفلسفي الاجتماعي عند هابرماس يظهر الكثير من الانسجام سواء على المستوى المنهجي أو المستوى المعرفي، فهو لم يتخل عن الوظيفة النقدية للفلسفة، التي نشأ عليها من خلال أساتذته في مدرسة فرانكفورت،و أجداده في الإرث الألماني. إذ انه يستند بشكل جوهري على تمفصل الحداثة والتواصل، ويبدو وكأنه نظرية لنظريات ، بسبب مناقشته لأكثر من نسق فلسفي وعلمي، ونقده لجل الاجتهادات النظرية التي جعلت من ظواهر الحداثة موضوعا لها، ولذلك فان نقد العقل الحداثي بالمنظور الهابرماسي يعني تخليصه من براثن الاداتية الصرفة، وإعادة بنائه على أسس لغوية، واجتماعية، وأخلاقية،و سياسية.

إن التواصل عند هابرماس يحمل أكثر من دلالة، فهو تواصل مع الحداثة، وهو تواصل بين الأفراد، وهو تواصل بين المفاهيم، ولذلك أخذ هابرماس على عاتقه مهمة التأسيس للعقلانية التواصلية التي تبدأ كنظرية فلسفية، وتنتهي كنظرية سياسية. ولا يجب أن نفهم بان هابرماس مؤسس لنظرية طوبوية، وهو الذي يرفع شعار النظرية والتطبيق، فهو وإن كان ينقد العقل الاداتي فذلك

[1] -ibid.:p381

[2] - ibid. :381

بوصفه يمثل مفهوم العقل، وإن كان يؤسس للعقل التواصلي فهو ليس عقلا مجردا من مضامينه المادية. فهابرماس وهو يتحدث عن فلسفته لا يعدو أن يكون سياسيا وكأنه يمهد من خلال نظرية الفعل التواصلي إلى نظرية سياسية، تأتي مطبقة ومؤكدة على تواصل هذا المشروع الفلسفي، فالحوار بين النظر والعمل عند هابرماس يترجمه ذلك الانتقال من نظرية الفاعلية التواصلية إلى نظرية الديمقراطية التواصلية. وهنا تظهر عبقرية هابرماس وهو يحاول، إنزال فلسفته من السماء إلى الأرض،لان التغير هو حوار بين الفيلسوف والسياسي، وهما الصفتان اللتان اجتمعتا فيه، وبذلك يرفع شعار الفلسفة مسألة تخص السياسة. فإذا كانت الحرية لا تتحقق عند هيجل إلا ضمن الدولة، فان التواصل كأهم مقولة هابرماسية، لن يتجسد إلا من خلال ما يدعوه هابرماس"النشاط الديمقراطي التواصلي الذي يتطلب فضاء عموميا جديدا، مبني علي الحوار العقلاني، الحر، الأخلاقي والهادف.